

ظاهرة "الممارسة الغرافيتية" وإشكالية المقاربات المنهجية

محاولة ترصد أبرز المقاربات المعتمدة

باي بوعلام

أستاذ محاضر، علم الاجتماع، جامعة تلمسان.

• تمهيد:

سنحاول ضمن مقالنا الموالي⁽¹⁾ ترصد أبرز المقاربات الميتودولوجية التي إبتدعها وإستبناها الدارسون لأجل إستنطاق المنتج(ات) الغرافيتي(ة) Le(s) produit graffitique، واستجلاء أبرز مستوياته المُضمرة، ومعانيه الممكنة، سواء داخل الفضاءات المغلقة، أو على واجهات نظيراتها المفتوحة. مما جعلها - أي الغرافيتيا - موضوع سجال واهتمام عدّة تخصصات علمية، خاصةً، تاريخ الفن، الأركيولوجيا، الأنثروبولوجيا، علم الفلكلور، علم اللسانيات، علم الإجرام، علم النفس، التحليل النفسي، علم الإعلام والاتصال، وعلم الاجتماع بمختلف تخصصاته، الحضري، الثقافي، التربوي، الفني، البصري...، لأسباب شتى كما يعتقد الباحث المحكّ شيبال دين Scheibel Dean⁽²⁾.

لكن، خري بنا قبل الإندلاق في تفاصيل الموضوع أن نعرّج على أهم تعريفات مفهوم "الغرافيتي (s) Graffiti"، فما المقصود بالغرافيتي / الغرافيتيا؟ وما أبرز اشتقاقاته الدلالية؟.

I. حول معاني "الغرافيتي Graffiti":

إيمولوجياً، مفردة "Graffiti" في بنيتها ودلالاتها اللغوية المعاصرة إيطالية الأصل والفصل، أُشتقت من فعل "Graffiare"، ويعني (يخدش ويكشط). أُلحقت بسوق التداول المعجمي والمصطلحي لأوّل مرة في القواميس الإنجليزية بداية 1851. لينفرض المصطلح في القواميس الفرنسية بمفرده "Graffito" سنة 1886، وقبلها كلمة "Graffite" سنة 1878⁽³⁾. ذكرت عنها قواميس التّجذير وتعليل أصل الكلمات والألفاظ أنّها ذات أصول لاتينية ويونانية في البداية، وإيطالية حيث إكتسبت دلالاتها التّهائية المعاصرة.

مع مرور الوقت عرفت تعرّجات دلالية متعدّدة، على مستوى المعنى والاشتقاق⁽⁴⁾، بعدما كانت تدل على تلك "التّقوش العتيقة Les inscriptions antiques" التي خلّفها الإنسان الأوّل على جَنَبات الكهوف والمغارات والصّخور... إلخ.

بكثير من التّأثيل المفصّل، يُسوّق المفهوم في لغات العالم بُنى ومعاني متعدّدة، لكنها متقاطعة في دلالة مشتركة. ففي اللّغة الإغريقية نجد كلمة "Graphein" تعني "يكتب، يرسم وبعض المرّات يُلوّن". أمّا في اللّغة اللّاتينية فأصل الكلمة يعود لمفرده "Graphium" وتعني: يُخْرِش، يُخْدش، وَيَكْشَطُ⁽⁵⁾. في حين نجدّها في اللغة الإيطالية مشتقة من مفردة "Sgraffito" وتعني "يخدش، ويخْرِش". تطور اشتقاقها إلى "Graffito"، مفرد كلمة "Graffiti". ومعناه "كُتِبَ وَخَدَشَ أو حُمِّشَ أو حَكَّ سَطْحاً"⁽⁶⁾. بشكل عام تُشير كلمة "غرافيتي Graffiti" في اللّغات الأوروبية إلى أيّ كتابة أو رسم أو خدش... "عُرِفَت على الجدران، وما شاكلها من الدّعامات (Les supports)، غير المخصّصة لذلك، باستخدام أدوات كتابة تقليدية أو معاصرة، كالصّحاح والرّذاذ.

تباينت السّجلات والمناكفات حولها، إذ يُرْفِها ويُقدّسها البعض لدرجة العمل الفنيّ القِيم، بينما يحترقها ويُدنّسها البعض الآخر، ويُنزّها لِدَرَكَة الفعل التّخريبية (Un acte de vandalisme) للممتلكات العامّة والخاصة. ففي قاموس - "Le Robert" مثلاً - تدل الغرافيتيا على: كلّ كتابة أو رسم مخطوط أو منقوش على الحيطان، وعلى جَنَبات آثار المدن. وفي معناها العام، كلّ كتابة أو رسم زكيك على الجدران، والأبواب العمومية أو الخاصة، أو خريّشات / شخَبَطات ساقطة - وفاحشة Des gribouillages obscènes.

ونظراً لإنتشارها المهور بالعديد من المجتمعات، وحضورها اليومي بمختلف التّضاريس المجتمعية، بداية من النّصف الثاني من القرن الماضي، وفعاليتها في التّعينة الجماهيرية - المضادّة - (خلال أحداث ماي 1968)، إضافةً، لارتفاع تكاليف محاربتها بالنّسبة للسلطات المحلية، وإنفراضها كممارسة/ بل ظاهرة اجتماعية بإمتياز، فرضت ذاتها كموضوع بحثي مهم، شغلت العديد من الباحثين - رغم قتلهم،

بإختلاف نحلهم ومواقفهم العلمية. لكن، واجهتهم جملة من العوائق المنهجية إضطرتهم للإعتراف بجدية وصعوبة مقارنتها. ولتجاوز هذه الاشكاليات عمدوا لصياغة و"تبيئة" عدة مقاربات بحثية لتيسير الفهم والتحليل⁽⁷⁾، نحاول تلخيصها فيما يأتي:

II. عشر مقاربات لفهم الممارسة "الغرافيتية":

سنعرج اللحظة على أبرز المقاربات التي إستثمرها دارجي "الغرافيتيا"، من آل السوسيولوجيا والانثروبولوجيا، وباقي العلوم الانسانية والاجتماعية، خاصة الأمريكيين منهم (حيث مهد الممارسة بلونها المعاصر)، ومنه باقي الدارسين الأوروبيين، ومن لحق بهم في المجتمعات التي عرفت إنتشار الظاهرة.

1. المقاربة الثقافية / L'approche Culturaliste:

كثيراً ما إستخدم آل الأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا هكذا مقارنة في محاولات إستجلاء أواليات إستغلال "الممارسة الغرافيتية"، باعتبارها "ثقافة" عاكسة ومعبّرة عن تمثّلات وتصورات جماعة اجتماعية معينة، أو جماعة إثنية محدّدة. حيث يتم إستثمار كامل المعطيات المتاحة، قصد تحليل كل كلمة، جملة، شعار، رمز أو صورة، بالتركيز على طبيعة اللغة المستعملة، ونوع "الحامل الغرافيتي" support graffitique Le "المستثمر، وخصوصية مضامين "الوحدات الغرافيتية" Les unités graffitiques "المنجزة، ورمزية "الرسائل الغرافيتية" Les messages graffitiques "المرسلة،... إلخ قصد الكشف عن مميزات الحياة اليومية المعاشة Le vécu quotidien لهذه الجماعة أو الجماعات، أو للمجتمع ككل، بإبراز خصائصهم الثقافية، المتميزة، والمميّزة لهم كمجموعة قائمة بذاتها. ومنه المساءلة حول ملامح هوية هذا "الخطاب الغرافيتي" Le discours graffitique. وبالتالي تحديد المرجعيات التي تسم الهوية الثقافية، التي يتبنّاها الفاعلون، سواء تعلق الأمر ب: ثقافة الضد، ثقافة النخبة، الثقافة الفنية، الثقافة الجماهيرية،... أو غيرها من الأنماط الثقافية المؤنّثة لثقافة المجتمع. ويعتبر عالم الاجتماع والأنثروبولوجيا "جون بوشنل" Jean Bushnell⁽⁸⁾ من أشهر الباحثين الذين فعّلوا وطوّروا هذه المقاربة في حقل العلوم الاجتماعية عامة، وعلم الاجتماع خاصة، حيث ركّز على "المادة الغرافيتية" ليبيان ما هو مهم بالنسبة لسكان العاصمة "موسكو" Moscou، مركّزاً على "الجماعات الشبّانية" Les gangs باعتبارها فضاءً لبروز العديد من "الفاعلين الغرافيتيين" acteurs Les graffitiques. مستخدماً في ذلك "الغرافيتي" كـ "بارومتر" Un baromètre لقياس آثار التّغير الاجتماعي والثقافي على حياة الأفراد والجماعات، واستخلاص أهم السمات الثقافية المشتركة والمميّزة لها، ذلك لأنّها تعكس طبيعة المجتمع الذي أفزرها. وفي ذات السياق اجتهد السوسيولوجي الأمريكي "طوني كوهان" Tony Cohan⁽⁹⁾ (1975) حينما قارب الظاهرة باعتبارها "تمثّلات اجتماعية Des représentations sociales" هامة لإستجلاء ملامح "الثقافة الفرعية" Subculture/sous-culture الخاصة بممارسيها.

2. المقاربة النوعية / الجندرية L'approche du Genre :

يعتقد فصيلٌ ثانٍ من الباحثين المنهجين بـ "الفعل/الممارسة الغرافيتية"، بإمكانية مقارنة هذه الأخيرة من خلال متغيّر "النوع/الجندر" - مفهوم سوسيولوجي يقصد به "العلاقات الاجتماعية بين الجنسين"، عملياً يقصد به تحليل المكانات والأدوار الاجتماعية والعلاقات بين الجنسين، بالتركيز على التّباينات والتّراتيبات الاجتماعية والثقافية المشكّلة -.

يتمّ مقارنة ممارسة الغرافيتي في فضاءات خاصة تُيسّر ذلك، على نحو "المراحيض"، التي تفصل فصلاً فيزيقياً بين الأفراد، على أساس النوع (ذكوراً، إناثاً)، إذ بإمكاننا ترصد وتحليل وفهم "الأثر الغرافيتي"، من خلال ما أُصطلح عليه بـ "غرافيتي المراحيض" Restroom graffiti/Bathroom/ أو "لاتريناليا" Latrinalia كما يسميها "ألان دنديز" Alan Dundes⁽¹⁰⁾، بالتركيز على مبدأ "النوع" دون "حاملاتها"⁽¹¹⁾. حيث تمكّن كل من "جين كيلسو" Jane Kelso و "برونر إدوارد" Bruner Edward (1980) من إحصاء ثلّة من الدّراسات الكميّة حول الظاهرة، واستخلصا بأنّ هناك إختلافات وتباينات تتركز على متغيّر النوع (الجندر)، ومنه، التّباين بين "الغرافيتيا الذّكورية" و "الغرافيتيا الأنثوية"⁽¹²⁾.

كما إستنتج الباحث "أنج ليوندي" Leandri Ange بعض أوجه التّباين بين "الغرافيتيا النّسائية" (الأنثوية) و "الغرافيتيا الرّجالية" (الذكورية)، حيث تتّصف الأولى بمضمونها المُحتشّم والعاطفي الحساس، أمّا الثانية، فتميّزت بالفُحش والسّماجة والغُدوانية⁽¹³⁾.

بدورها تُصنّف دراسة "ألوي بریتان Britain Olowu" سنة 1983، ضمن هذه المقاربة، إستجمع من خلالها عينات من "اللاترینالیا Latrinalia" من المراحيض الخاصة بالطلبة الجامعيين (ذكور)، المنتسبين لبعض الجامعات البريطانية، ومثيلاتها التيجيرية، وقارن بينها، ليستنتج أنّ أكثر فئات "الغرافيتي" حضوراً بالمراحيض التيجيرية، تلك التي تُعبّر عن الاعتقادات الخرافية والزوحانية. أمّا نظيراتها البريطانية فأغلبها تواجداً، فئة "غرافيتيا المثليين Gay Graffiti" التي إنعدمت في عيّنة المراحيض التيجيرية⁽¹⁴⁾.
يبد أنّ هكذا تحليل كثيراً ما يغلّ عن الأوجه الأخرى للظاهرة، خاصةً الثقافية منها، وطبيعة الدّعائم والحاملات. كما سجّل عليها إنتصارها المفرط لأوجه التشابه بين "الكتابات الغرافيتية" على أساس النوع، بدّل تركيزها على أوجه التباين والاختلاف.

3. المقارنة اللسانية L'approche Linguistique:

يركّز أنصار هذه المقاربة على متغير "اللغة" المستعملة في تجسيد "الرسائل الغرافيتية Les messages graffitiques"، كأساس لتحليل الظاهرة، حيث أُجريت العديد من الدراسات اللسانية الأصيلية حولها، معتمدة على مرجعية نظرية تتعامل مع "النص الغرافيتي Le texte graffitique" كغابة من الرموز، لها دلالاتها وأبعادها وخصائصها اللغوية، المتعددة والمتباينة، تُؤشّر على رغبة الفاعلين في محاولة "إعادة امتلاك رمزي symbolique Réappropriation" للفضاء الحضري، بكل تضاريسه، خاصة الفضاءات العامة منها. مستثمرةً في ذلك "لغة خاصة" يجب الكشف عنها. لأنّ كلّ "لغة" ليست سوى "منظومة كُليّة" لها خصائصها وعناصرها وبنياتها ومستوياتها التراثية، يجب البحث عن دلالاتها ومقارنتها مع نظيراتها. بلغة الباحث "بيار برتونسكي Pierre Bertoncini" "إنّما امتلاك رمزي لفضاء معيّن (ضاق أو إتسع)، يكون قد فقده في مجتمعه"⁽¹⁵⁾.

وفي ذات السياق إجتهد كل من "دافيد لاي David Ley" و"رومان سيبرويسكي Cybriwisky Roman" على مقارنة الظاهرة، ليخلصا إلى أنّ "الغرافيتيا" عبارة عن "مُحدّدات إقليمية" تفصل بين مناطق السيطرة/ الهيمنة، الخاصة بكل "عصابة" من "عصابات الغرافيتي Gangs graffiti"⁽¹⁶⁾. دعمت الفكرة الباحثة "سيلفيا غريدر Sylvia Grider"⁽¹⁷⁾ بدراستها لـ"غرافيتيا المجموعات الشبانية" بالأحياء الشعبية الأمريكية، حيث خلصت إلى أنّ طبيعة وشكل اللغة المستخدمة في الممارسة، هيّج من اللغة الأمريكية والمكسيكية، أُستثمرت لحماية رسائلهم الخاصة من "الآخر" (العصابات المنافسة وأجهزة الشرطة)، صفة جعلتها تُشابه إلى حدّ ما لغة الإشارة العسكرية التي تستخدمها المؤسسات الرسمية.

بدورها تبقى هكذا مقارنة قاصرة بتركيزها على بعد واحد فقط في الظاهرة، متجاوزة أبعاد مجاورة خاصة البعد الثقافي الهوياتي.

4. المقاربة الفولكلورية L'approche Folklorique:

تعتمد هذه المقاربة على تجميع أكبر عدد ممكن من "الوحدات الغرافيتية Les unités graffitiques"، ل يتم التركيز فيها على السمات والأبعاد الفولكلورية للممارسة، من خلال تحليل مضامينها، أو تحليلها من خلال المساحات المتعددة، المشغولة، والحُبلى بـ"المنتج الغرافيتي Le produit graffitique". حيث سافر "ألان ولكر ريد Allen Walker Read"⁽¹⁸⁾ نهاية عشرينات القرن الماضي عبر العديد من المنتزهات والحدائق العامة بالولايات المتحدة الأمريكية، ليسجّل العديد من "الكتابات الفولكلورية"، التي جثّت على مختلف "الحاملات"، كالجدران، الأشجار، المقاعد، الأبواب، التوافذ، السلام... إلخ. بتركيزه على تاريخ "الغرافيتي" وحامله، حيث زام فقط حفظ "المنتجات الغرافيتية" للمستقبل. تعكس "الغرافيتيا" حسب هذه المقاربة خصائص الفنون الشعبية لفاعليها، مما جعلها تتموقع كـ"فلكلور شعبي"، بل "فلكلور ثوري Folklore révolutionnaire" يعبّر عن تطلعات وآمال وأحلام المجتمعات، خاصة في الأوقات الحرجة (الأزمات). طابعها "التّجميعي" جعل بعض الدّارسين يأخذون على مصداقيتها العلمية في إستوضحا عمق الممارسة الغرافيتية".

5. المقاربة الكميّة L'approche Quantitative:

تتميّز هكذا مقارنة ببعدها الكمي التّصنيفي، باستخدام الرّسالة الإحصائية، حيث يزوم الدّارسون من ورائها تصنيف "المنتج الغرافيتي" على أساس "كمية" النوع، المحتوى، أو أيّ متغير يمكن تكميته، وقياسه، لتيسير عملية التّمييز بين مضامينه الغرافيتية Les contenus graffitiques. حيث تمكّن كل من "ميكائيل مارتن Michael Martin" و"جون باتس John A. Bates"⁽¹⁹⁾، من إستخلاص ستّ عشرة فئة من الغرافيتيا المتباينة، التي غزت الحرم الجامعي بمدينة "ماساشوسيت Massachusetts"، وكان تقيمهما الإحصائي للمادة

المجموعة على أساس 'عدد الإجابات' بـ 'نعم' أو 'لا'، حول موضوع مُحدّد يُختار سلفاً. ليخلصا أنّ الطالبات أكثر ممارسةً للغرافيتي من الطلاب -خاصة في المراحل- حول ثيمات جنسية وبورنوغرافية.

غير أنّ التزعة المُفرطة لتكميم Quantification "المنتج الغرافيتي" بلغة الاحصائيات، دون البحث في سياقات مجاورة، خاصة التوعية منها، يؤدي في الغالب إلى الاهتمام بما هو عام، مع احتمال طمس ما هو خاص، نوعي وعميق.

6. المقاربة الفنية الجمالية L'approche Esthétique :

تركّز هذه المقاربة على إستحلاء الأبعاد الفنية والجمالية للمنتج الغرافيتي (ما يسمى بـ "الفن الغرافيتي Graffiti Art"، إذ تجتهد لإستظهار خصائصه الجمالية والفنية، لتسليمها المسبق بوجود أوجه تشابه بين "الفن" (الرسمي) و"الغرافيتي" (غير الرسمي)⁽²⁰⁾. حيث قام كل من "كيرك فارنيدو Kirk Varnedoe" و"غوبنيك آدم Gopnik Adam"⁽²¹⁾ بتفعيل مقارنات وموازنات هامة بين "فن الغرافيتي" وباقي المنتجات الفنية المُرسّمة (المُشرّعة)، لفنانين معروفين.

غالباً ما تُدعم مثل هذه الدّراسات تحليلاتها بصوّر 'راقية' من "الفن الغرافيتي"، يمكن مجارأتها بفن "بيكاسو Picasso" و"ليوناردو Leonardo" و"موني Monet"⁽²²⁾، كما يعتقد "جيورج ستوار George Stowers". حيث يفترض قائلًا: لنفترض أنّ أحد هؤلاء الفنّانين، كان حيّاً ونزل بجانب منزلك لرسم تحفة فنية جميلة، فهل تمنعه؟. ربّما تباينت ردود الأفعال، لكنني أزعج -الكلام لـ"جيورج ستوار George Stowers" - أنّ الأغلبية ستُرحب بذلك. كما يُوقع بعض الباحثين المتأخرين مثل هذه الدّراسات في سياق حقن "سوسيولوجيا الفن Sociologie de l'art".

أجمعت العشرات من الدّراسات التي اعتمدت بالدرجة الأولى على هذه المقاربة على توصيف "الغرافيتي" بأوصاف عدّة، على نحو:

✓ الغرافيتيا عبارة عن "فن الشوارع".

✓ "الفن الغاضب".

✓ "الفن المتمرد/ المتشرد" حسب "لانيبايل Lany Bayle".

✓ "الفن المُشاكس".

✓ "فن الرّذاذ Spray Art" (نسبةً لغلبة الرّذاذ التي يَسرّت إنتشار الممارسة خلال نهاية السّبعينيات).

✓ "فن الطبقات المحرومة والفقرية والمهمشة". تتشارك كل هذه التسميات في اعتبار الغرافيتي "فناً".

7. مقاربة الدوافع L'approche Motivationnelle :

من جملة التّساؤلات التي تنطلق منها هذه المقاربة: لماذا يَلتجئ "الأفراد" للممارسة الغرافيتية؟، وما الدّوافع القّاوية وراء ذلك؟ وما الأسباب الفاعلة في حدوثها؟. وغيرها من الأسئلة المتشابهة التي تحاول الإجابة عنها، بالتركيز على الدّافع/ الحافز الفردي للفاعل "المُعرف Le Graffeur". فاستحلاء هكذا دوافع فردية، يُيسّر لنا إستخلاص الدّوافع المشتركة بين الأفراد، ومنه الدّافع العام، الذي يمثّل نقطة تشارك "قيم ثقافية" بين الجماعة(ات) الممارسة للغرافيتيا.

فالعديد من دارسي العلوم الاجتماعية، خاصة علم النفس وعلم الاجتماع والاثروبولوجيا، إستثمروها في دراساتهم لذات الغرض، على نحو "إرنست آبل Ernest Abel"، "باربارا باكلي Barbara Buckley"⁽²³⁾ و"ريجينا بلوم Regina Blume". هذه الأخيرة التي لخصت دوافع الالتجاء للغرافيتيا، في فئتين رئيسيتين: الاتصال الجماهيري والانعكاسي /الاتصال الفردي والفئوي، تتفرّع منهما ثمان مجموعات فرعية⁽²⁴⁾.

يبد أنّما يُؤخذ على "مقاربة الدّوافع" إمكانية فتحها الباب على مصراعيه لذاتية الباحث في تفسير وتأويل خلفيات الممارسة الغرافيتية.

8. المقاربة الوقائية L'approche Préventive :

برزت وإزدهرت هذه المقاربة، بُعيد الإنتشار المَهول والمكثّف للغرافيتيا بالمجتمع الأمريكي، ثم باقي المجتمعات الأوروبية، وتزايد "تكاليف" محاربتها، وتحويلها لجنحة يعاقب عليها القانون، نتيجة نداءات "رافضي الغرافيتيا"، خاصة من أهل الحُل والرّبط (المسؤولين المحليين

ورجال الأمن)، وبعض المواطنين الذين تضرّروا منها مباشرة (كلفتها التّنظيفية). حيث اعتبرت الممارسة "مرض اجتماعي خبيث" (سرطان) يُستوجب الوقاية منه قبل إستفحاله.

ويعتبر الباحث المُتمرس "فرانك كوفيلد Frank Coffield"⁽²⁵⁾ من أشهر رواد هذا الاتجاه، حيث قدّم دليلاً يقترح فيه أبرز الكيفيات الفعّالة للحدّ والوقاية منها -خاصةً بالمجتمع البريطاني-، كتكثيف الحملات التّحسيسية بخطّرها الظاهرة، بتنفيذها في برامج التربية البيئية والمدنية، وتعميم حملات تنظيف الواجّهات "المُعرّفت" (المكتوب عليها) عليها، وتشديد العقوبات المادية والمعنوية...، وفق توصيات "جيمس ويلسون James Q. Wilson" و"جورج كلينج George L. Kelling" في مبادئ نظريتهما "التّافذة المكسورة Broken Window La Fenêtre Brisée/Window"⁽²⁶⁾ لمحاربة السلوك الإجرامي، وفي ذات الوقت تطبيق فلسفة مبدأ "الوقاية خير من العلاج" بتوسيع العمل التّوعوي قبل الإصابة بالبلوى.

9. المقاربة الحضريّة L'approche Urbaine:

غالباً ما تصنّف الدّراسات التي تعتمد على مثل هكذا مقارنة في سياق "السوسيولوجيا الحضريّة Sociologie urbaine"، حيث تحاول تفهّم العلاقات الممكنة بين "الخطاب الغرافيتي Le discours graffitique" و"الفضاء الحضري Le milieu urbain" الذي احتضنها، وما أنتجته هذه العلاقة التفاعلية، خاصّةً، فيما سُمّي بـ "الغرافيتي الحضري Le graffiti urbain"، وعلاقته بـ "الثقافات الحضريّة Les cultures urbaines" الخاصّة به. وما يميّز هذا الخطاب عن غيره من الخطابات المجاورة. حيث يعتقد الباحثون في الموضوع أنّها (الغرافيتي) إنتشرت بهذه الطريقة نتيجة الاختلالات الوظيفية للمؤسّسات الحضريّة والمدنيّة، والتّنشئة، التي أفرزت ظواهر اجتماعية متعدّدة، كالتهميش والاقصاء الحضري واللامساواة الاجتماعيّة، عبّرت عنها بمجموع سلوكات "القبائل الحضريّة Les tribus urbaines (المُعرّفون/ des graffeurs Les graffiteurs)".

10. المقاربة العامّة/ الشّعبيّة L'approche Populaire:

تفطّن بعض الدّارسين لأهمية كُتب السّخرية والفكاهة التي لها رواج كبير بين أفراد المجتمع، بإختلاف طبائعهم ونُحلهم من المعاش، الاجتماعي والثقافي، نظراً لميزتها التّرفيهيّة والتّنفسيّة، ما رَشّحها لتكون من أكثر المنتوجات الشّعبيّة تسويقاً، أمام باقي أصناف "الانتاج الثقافي" المعروض في السّوق الثقافيّة. وضعّ شجّع جامعي "التّحف الغرافيتيّة" من تكييفها وفق قواعد السّوق، بالإعتماد على مقارنة عامّة، تنتقي المواد (صورة، كلمة، جملة) على حَسَب رغبة الباحث والمستهلك في التّسلية والتّفكّه.

ولعل أشهر مُراجع عن هذه المقاربة الباحث الكندي "جون روبرت كولومبو John Robert Colombo" خاصة من خلال مؤلّفين له نشرهما على التوالي سنتي (1983/1975)⁽²⁷⁾.

طبيعتها "السّطحيّة" في التّعامل مع الغرافيتي جعلتها تتعرض لانتقادات عديدة، إذ يعتبرها بعض الباحثين سوى تجميع للغرافيتيا بكل أنواعها، بهدف تسليّة القارئ لا غير، أيّ دون العوّص في تحليل مغزاها العميق، باستحلاء مدلولها السوسيولوجي أو السيكولوجي أو الأنثروبولوجي. كما تخضع في تجميعها لذاتية الباحث في اختيار "الكتابات/الصّور" المسلّية لا أكثر.

ولتقريب الفهم أكثر، نستعرض -بتصرف- المقاربات الستالفة التّقديم- ما عدا المقاربة المدينيّة/ الحضريّة- من خلال الجدول التالي، الذي صاغه السوسيولوجي الأمريكي "جين كادسي Jane M. Gadsby"، ليوضح المقاربة الأكثر إستثماراً في البحوث (107) عينة دراسته⁽²⁸⁾.

طبيعة المقاربة	النسبة المئوية
المقاربة الفلكلورية	23%
المقاربة الثقافيّة	18%
المقاربة الكميّة	13%
المقاربة الدّوافع	12%
المقاربة الجنديّة	11%
المقاربة اللّسانية	8%

المقاربة الشعبية	6%
المقاربة الفنية الجمالية	6%
المقاربة الوقائية	3%

الجدول 1: نسبة استخدام كل مقاربة، حسب "Jane M. Gadsby".

يتضح من خلال الجدول الحضور الواسع للمقاربة الفلكلورية (بنسبة 23%)، وتليها المقاربة الثقافية (بنسبة 18%)، ثم تردفها المقاربة الكمية، التي لقيت رواجاً خلال سبعينات القرن الماضي، بينما تكاد تغيب المقاربة الوقائية، ربما لعدم فعاليتها اتجاه الفاعلين الغرافيين.

III. أمام هذا التنوع في المقاربات، ما المعمول إذاً؟

للخروج من هكذا إشكال، يشير "جين كادسي" Jane M. Gadsby إلى أن أعنى الباحثين في الموضوع يُقرّون بأن الدراسات التي لها أكبر مصداقية علمية، تلك التي تستثمر وتشارك أكثر من مقاربة منهجية. حيث عمدت معظم الدراسات (خاصة الأمريكية والكندية) منها، لإستثمار أكثر من مقاربة منهجية، لتفكيك أليات اشتغال الظاهرة. فعلى سبيل المثال، مازحت دراسة الباحثة "دايفيس كاثرين Davies Catherine"، بين مقاربات عدة، بين النوعية/ الجندرية والكمية ومقاربة الدوافع.

بدورها انتقدت الباحثة "مورا سميث Moira Smith" المقاربات المعتمدة في جلّ الدراسات التي قاربت الموضوع، ذلك لأن أغلبها ينحو إما التركيز على البعد المادي (الوسائط والحاملات)، وإما الانشغال فقط بـ "التصوص الغرافيتية" بشكل إنتقائي. هذا ما غيب أبعاد أخرى، لذا من الأصوب الاهتمام بتفاعل هذه الأبعاد كلّها، في ما تسميه بـ "المقاربة السوسiolinguistique L'approche sociolinguistique" أين يتم الانشغال بالسياقات النصية/ الصورية، الوسائطية، والثقافية المميّزة للفعل الغرافيتي، ومنه لـ "الفاعل المُعرّف L'acteur Graffeur". ولقد إقتنع الدارسون بفعالية هذه المقاربة، حيث نُشرت مجموعة من المقالات المستعوضة لدراسات إعتمدتها، على نحو، "كاثرين دافيس Catherine Davies" 1985، "آرس دارميرل Urs Dürmüller" 1988، "بيرش مونوومن Moonwomon Birch" 1992. (29)

في الأخير، نرجو أننا تمكّنّا من توضيح أهم المقاربات المستخدمة في تفهم الظاهرة الغرافيتية، علّها تُيسّر العمل على كلّ باحث يهتم بدراستها بمجتمعنا الجزائري، رغم إدراكنا أنّ هكذا عملية تبقى مسألة خلافية وجدالية، ومتعددة الأبعاد والمرجعيات النظرية والابستمولوجية.

الإحالات والهوامش:

1. يتّموّع مقالنا التالي ضمن رغبة منّا، كنّا قد أعلنّا عليها في مقالاتنا السابقة، (الوظيفة الأخرى للطاولة التعليمية: مقارنة سوسيلوجية لظاهرة الكتابات الغرافيتية)، (ملاحح الممارسة الغرافيتية بالمجتمع الجزائري: محاولة تأريخية)، المستوحاة من أطروحتنا للدكتوراه الموسومة بـ "هوية الطالب الجامعي الجزائري من خلال الكتابات الغرافيتية". اجتهادات نؤوم من خلالها إستوضح وإستثارة البحث حول ظاهرة الغرافيتي Les graffiti(s) بمجتمعنا، ظاهرة، مازالت "غائبة، مُعَيّبة، مهتشة على مستوى الإنحجاس البحثي.

2. Scheibel, Dean, "**Graffiti and film school culture: Displaying alienation**", Communication Monographs, 61,1994, pp. 1-19.
3. Romain Sahut, **Mémoire d'expression: Les graffiti et l'art urbain**, IUTBM, 2002-2003 p3.
4. Ex: Les dérivés graffitique (adj.), graffittiste (adj.), graffiteur, se (subst.),..sont des néologismes récents appartenant à la langue spécialisée.
5. Pierres Philosophales, "**Photo graffiti(es) d'Expressions Murales**", Collectif des 12 Singes, 2010, 150p. In: <http://photograffeurs.over-blog.net,eBook>. Consulté le : 13/9/11.
6. Romain Sahut, op.cit.p.4.
7. Jane M. Gadsby, "**Looking at the writing on the wall: A critical review and taxonomy of graffiti texts**", 1995. In: <http://www.graffiti.org/faq/critical.review.html>. Consulted:4/7/10.
8. Jean Bushnell, "**Moscow Graffiti, Language and Subculture**", Boston, 1990.
9. Cesaretti, Gusmano, "**Street writers: A guided tour of chicano graffiti**", Los Angeles, CA, Acrobat Books, 1975.

10. تُحْت المصطلح من طرف الأنثروبولوجي الأمريكي "ألان دنديز Alan Dundes" لـ توصيف نوع من أنواع الغرافيتيا الخاصة بالمراحيض، أُخرّأه باسم (Latrinalia) . وذلك في سياق دراسته حول غرافيتيا المراحيض، والموسومة بـ "Here I sit : A study of American Latrinalia"، ليتوسع إستثماره على يد العديد من الدارسين على نحو الباحث البرازيلي "بلازا راناتا تكسير Plaza Ranata Teixeira" الذي قارب الظاهرة من خلال مقارنته بين العديد من "الكتابات الغرافيتية" التي جمعها من مجتمعات شتّى.

11. Arnold Arluke & Lanny Kutakoff & Jack Levin, **"Are the times changing?, An analysis of gender differences in sexual graffiti, sex roles"**, vol 16, n° 1-2, 1987, pp. 1-7.
12. Bruner, Edward M. & Jane Paige Kelso, **"Gender differences in graffiti: A semiotic perspective"**, Women's Studies International Quarterly, n° 3, 1980, pp.239-252.
13. Ange, Leandri, « **Graffiti et Société** », France, 1983, 622 p.
14. Emma Otta & Paulo Reinhardt Santana, **"Musa Latrinalis: Gender differences in restroom graffiti"**, Psychological Reports, Institute of Psychology, University of Sao Paulo, 1996, pp.78,87. In: <http://www.ip.usp.br/portal/images/stories/Articles/1996OttaLafrayaHoshinoTeixeiraVallochiSantanamusalatinallis.pdf>. Consulted: 17/07/2011.
15. Pierre Bertoncini, **"Graffiti et littoral: Les Signes de la littoralisation du territoire Corse"**, Actes du colloque international pluridisciplinaire, **Le littoral: subir, dire, agir**, Lille, France, 16-18 janvier 2008.
16. David Ley; Roman Cybriwsky, **"Urban graffiti as territorial markers"**, Annals of the Association of American Geographers, vol. 64, n° 4. (Dec.1974), pp. 491-505. URL: [http://links.jstor.org/sici?sici=0004-5608\(197412\)64:4<3A4%3C491%3AUGATM%3E2.0.CO%3B2-H](http://links.jstor.org/sici?sici=0004-5608(197412)64:4<3A4%3C491%3AUGATM%3E2.0.CO%3B2-H). Consulted: 12/1/2009.
17. Grider, Sylvia Ann. **"Con Safos: Mexican-Americans, names and graffiti."** published in Journal of American Folklore, Vol. 88, pp.132-142, 1975. URL: <http://www.graffiti.org/faq/graffitibiblio.html> Consulted: 14/2/2010.
18. Allen Read Walker, **"Classic American graffiti: Lexical evidence from folk epigraphy in western north america: A glossarial study of the low element in the English vocabulary"**, publisher: Maledicta (Waukesha, Wis.USA), 1977, 83p. In: <http://www.getcited.org/pub/101667479>. Consulted: 12/05/2010.
19. Michael Martin, John A. Bates, **"The thematic content of graffiti as a nonreactive indicator of male and female attitudes"**, Journal of Sex Research, vol 16, 1980, pp.300-315. In: <http://www.informaworld.com/smpp/content~db=all~content=a918465630~frm=titlelink>. Consulted: 10/2/2008.
20. رغم أن العديد من الآراء تميز بين الفن التقليدي الرسمي و الغرافيتيا باعتبارها ممارسة غير رسمية وغير "راقية".
21. Varnedoe, Kirk and Adam Gopnik, **"High and Low: Modern art, popular culture"**, New York: Museum of Modern Art, 1991.
22. George C. Stowers, **"Graffiti art: An essay concerning the recognition of some forms of graffiti as art"**, 1997. In: <http://www.graffiti.org/faq/stowers.html> .Consulted: 20/10/2009.
23. Abel, E & Buckley, B. **"The handwriting on the wall: Toward a sociology and psychology of graffiti"**, Westport, Greenwood Press, 1977, 156 p.
24. Regina, Blume, **"Graffiti: Discourse and literature"**, Ed, T. A. Van Dijk, vol: 3, Critical Theory, Amsterdam/ Philadelphia: John Benjamins Publishing Company, 1985. pp. 137-148.
25. Frank Coffield, **"Vandalism & graffiti: The state of the art"**, Publisher: Calouste Gulbenkian Foundation (London), 1991, 128 p.
26. خلاصة هذه النظرية أن السلوك الإجرامي نتيجة حتمية للفوضى التي تترك تتشكل وتتراكم من إرهابات السلوكيات "الصغيرة"، فعندما تُكسر نافذة ما ولا يتم إصلاحها أو تغييرها مباشرة، يظن المخيطون أن أحداً لا يهتم بالأمر، وسرعان ما تكسر نوافذ أخرى، وتنشر الفوضى من المبني، ومنه إلى الشارع الذي يقابله، وهكذا دواليك، حتى نَعَم الفوضى، مع إرسال رسالة بأن كل شيء مباح.
27. John Robert Colombo, **"Colombo's little book of canadian proverbs, graffiti, Limericks and other vital matters"**, compiled by; Peter Whalley & David J. Shaw, Hurtig Pub, 1975, 143 p.
28. Jane M. Gadsby, op, cit.
29. Ibid.